الجزء الثاني

الزمان والمكان

الأزمات الكبيرة تخلق رجالًا عظامًا وأعمالًا كبيرة من الشجاعة، ولم تشهد هذه البلاد أزمة أكبر من تلك التي تمخضت في سنة ١٨٦١ عن حرب بين الشمال والجنوب قتل فيها الأخ أخاه أو أخته، وهكذا ودون التعمد في التقليل من أهمية فترات أخرى في التاريخ الأميركي.

يتعذر على مثل هذا الكتاب تجاهل ثلاثة أعمال تميزت بشجاعة سياسية خارقة — ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى الإبقاء على الاتحاد — حدثت خلال السنوات العشر المصيرية التي سبقت الحرب الأهلية، وكانت الهزيمة هي المكافأة في حالتين تناولتا السناتور سام هيوستون ممثل تكساس، والسناتور توماس هارت بنتون ممثل ميسوري اللذين تمتع كل منهما بسيطرة سياسية في ولايته سنوات عديدة، أما في الحالة الثالثة التي تناولت دانيال وبستر ممثل مساتشوستس فلم يكن الموت الذي وافاه خلال سنتين من قراره العظيم ليوقف سيل الشتائم التي وجهها إليه أعداؤه، والتي جعلت آخر أيامه علقمًا، وليس من الغريب أن تبرز فترة السنوات العشر هذه — التي حفلت بأزمات متكررة كانت فيها عرى الاتحاد تنفصم تباعًا — في زعمائنا السياسيين أحسن فضائلهم وأسوأ رذائلهم على السواء، واضطر هؤلاء الذين كانوا جميعًا يحتلون مناصب مسئولة أن يختاروا بين الإبقاء على ولائهم للأمة أو الولاء لولاياتهم ومناطقهم، وكان القرار سهلًا بالنسبة إلى كثيرين في الشمال ممن كانوا ينادون بإلغاء الرق، وإلى كثيرين من محبي القتال في الجنوب الذين كانوا يؤمنون كثيرًا بعدالة قضية القطاع الذي ينتمون إليه.

ولكن القرار كان مؤلمًا وموجعًا بالنسبة إلى أولئك الذين شعروا بولاء مزدوج لولايتهم ولبلادهم، الذين سعوا من أجل تسويات وحلول وسط تبعد مؤقتًا أو إلى الأبد شبح الحرب الذي خيم عليهم؛ ذلك لأن الاختيار القاطع والبات انطوى على الخروج على الولاء والصداقات القديمة وعلى احتمال تعرضهم لهزيمة سياسية مذلة.

وكانت قاعة مجلس الشيوخ الأميركي الميدان الذي دارت فيه رحى الصراع بين الشمال والجنوب، وأدرك الجنوب الذي جوبه بزيادة مطردة في عدد سكان الشمال تجلت بأكثريات متزايدة في مجلس النواب، أن الأمل الوحيد للإبقاء على قوته وكرامته يكمن في مجلس الشيوخ؛ ولهذا السبب بالذات كان إدخال ولايات جديدة في الاتحاد هو إجراء هدد باستمرار ميزان القوة المتقلقل بين الولايات الحرة وولايات الرقيق، وبين الأقاليم الزراعية والصناعية أساس المناقشات الرئيسية في مجلس الشيوخ خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٨٣٠ سُن قانون بإدخال ولايتي مين وميسوري معًا إلى الاتحاد، وكانت إحداهما حرة والأخرى يُمارس فيها الرقيق، وكان ذلك جزءًا من أول تسوية كبيرة أعدها هنري كلاي. وفي سنة ١٨٣٦ وسنة ١٨٣٧ أُدخلت أركنسو وميشيغان، وفي سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٤٦ أُدخلت فلوريدا وأيووا عن طريق الهيئة التشريعية، ولكن خيوط الحلول الوسط بدأت تتقطع في سنة ١٨٥٠؛ ذلك لأن ما ضُم من أراضٍ واسعة جديدة بسبب الحرب المكسيكية زاد في تسارع النقاش حول الرقيق، وتركز انتباه الأمة على مجلس الشيوخ، وبصورة خاصة على الزعماء البرلمانيين الثلاثة الأكثر موهبة في تاريخ أميركا، وهم كلاي وكالهون ووبستر، ومن هؤلاء كان وبستر الوحيد الذي نال مع بنتون وهيوستون عار سخط دوائرهم الانتخابية عليهم وذل سقوطهم السياسي على أيدي الولايات التي أحبوها ودافعوا عن قضاياها ببطولة، وسنلاحظ شجاعة وبستر وبنتون وهيوستون، ولكن إذا كنا نريد أن نتفهم الأوقات التي جعلت أعمالهم تتسم بالبطولة فإن علينا أن نلاحظ أولًا زعامة كلاي وجون كالهون، ذينك الجبارين في مجلس الشيوخ اللذين شكلا مع وبستر أبرز ثالوث عرفه المجلس في تاريخه.

كان هنري من كلاي كنتاكي جريئًا مستبدًّا جذابًا وناري الأسلوب، يتمتع بسحر تتعذر مقاومته بحيث رفض أحد خصومه مرة حضور اجتماع «يخضعه لجاذبية هاري القادم من الغرب»، وكان بالنسبة إلى أبراهام لنكولن «مثلي المتأنق». أما جان راندولف، من رونوك، وهو العبقري الذي اقترنت عبقريته بنوع من الجنون، فقد وصفه بتعبير يُعد أخبث ما قيل في تاريخ الإهانات الشخصية «مخلوقًا ذكيًّا جدًّا وفاسدًا جدًّا في الوقت ذاته كسمكة نتنة في ضوء القمر، لونها مشرق ورائحتها تعافها النفوس.» ولم يكن جون كالهون الذي حاربه سنين طويلة ليستطيع تفادي سحره؛ فقد قال: «إنني لا أميل إلى هنري كلاي، فهو رجل شرير ومحتال وصاحب مناورات شريرة، وأنا أعرض عن الحديث إليه، ولكنني والله أحبه.»

وأحبه آخرون غير جون كالهون، وقد كان مثل تشارلز جيمزفوكس رجلًا يتمتع بحبه للحياة، له موهبة منقطعة النظير من حيث كسب قلوب الرجال والنساء من أبناء بلده والاحتفاظ بها، وانتُخب عضوًا في مجلس الشيوخ وهو دون الثلاثين — السن الدستورية — وأُرسل بعد ذلك إلى مجلس النواب؛ حيث انتُخب فورًا — وفي خطوة لم يسبق لها مثيل ولم تتكرر فيما بعد — رئيسًا للمجلس وهو في الخامسة والثلاثين. وعلى الرغم من أن هنري كلاي كان يفتقر إلى مواهب وبستر أو كالهون العقلية فإن تصوراته بالنسبة إلى أميركا الكبرى تجاوزت تصورات أي من زميليه المعروفين. وهكذا تمكن في سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٥٠ من وضع الحلول الوسط الكبيرة الثلاث وتشذيبها، ومن حمل الهيئات التشريعية، على الرغم من ترددها، من تبني هذه الحلول التي أبقت على الاتحاد حتى سنة ١٨٦١ حين بلغت قوة الشمال درجة بات معها الفشل مصير أية محاولة للانفصال.

والرجل الثاني في الثالوث، ولعله أكثر الثلاثة غرابة، هو جون كالهون ممثل ولاية كارولينا الجنوبية، وكان ذا شعر كث وعينين ناريتين كأنهما جمرتان، وقد وصفته الكاتبة الإنكليزية العانس هاربيت مارتينو «بالرجل الحديدي القالب الذي يبدو وكأنه لم يولد أبدًا أو كأنه لن يموت أبدًا.» وعلى الرغم من مظهره هذا فإنه ولد في سنة ١٧٨٢ أي في السنة ذاتها التي ولد فيها وبستر، وبعد خمس سنوات من مولد كلاي، وكان طوله ست أقدام وبوصتين، تخرج من جامعة ييل وأصبح عضوًا في الكونغرس وهو في التاسعة والعشرين، كان ممن ينادون بالحرب، وقد اشترك مع هنري كلاي في دفع الولايات المتحدة إلى حرب سنة ١٨١٢، وهو وطني تحول ولاؤه إلى ولايته في العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما بدأت ضغوط التعريفة الاقتصادية تترك أثرها في الاقتصاد الزراعي بولاية كارولينا الجنوبية. وكان لكالهون عقل بارد ضيق مركز وقوي، واعتبره وبستر «أقدر رجل في مجلس الشيوخ» وأعظم مَن التقاهم في حياته العامة، وقال: «كان في استطاعته في الواقع أن يحطم نيوتن وكالفن وحتى جون لوك كمنطيقي.»

وكانت خطاباته مجردة من الحشو تخترق قاعة مجلس الشيوخ في صفوف مستوية منتظمة لتكتسح كل ما أمامها، ومن الغريب أنه، وإن كان قد ظهر بمظهر التعصب وعلى الأخص في أيامه الأخيرة، فإنه كان رجلًا ذا سحر لا حدود له وذا شخصية قوية، وكان المعروف عنه أنه أحسن محدث في كارولينا الجنوبية، وقد كسب إلى جانبه عن طريق العاطفة أناسًا فشلوا في فهم حججه التي تستند إلى المنطق، وازدادت سيطرته ازديادًا مطردًا على خيالات سكان الجنوب بأسره ومحبتهم. وعندما تُوفي في غمرة مناقشة رئيسية في سنة ١٨٥٠ عم الحداد كل مكان.

وكان كالهون يعتقد أن المؤتمر الدستوري لم يؤمم حكومتنا، وأن الولايات ذات السيادة لا تزال تحتفظ «بحق الحكم على الأشياء والأمور ... عندما كان الكونغرس يعتدي على سلطة الولاية وحريتها.»

واعتقد مع غيره من الجنوبيين أن جغرافية المناطق الغربية من البلاد ومناخها يجعلان نجاح الرقيق أمرًا بعيد الاحتمال في مناطق كثيرة كانت تسعى لأن تصبح ولايات؛ ولذلك فإن أملهم الوحيد في توازن المد الزاخر للولايات الغربية الحرة يكمن في المناطق الجنوبية الغربية عن طريق تأمين ولايات للعبيد جديدة، وأعضاء في مجلس الشيوخ من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من المكسيك؛ ولذلك فإن الحل الوسط الذي وضعه كلاي في سنة ١٨٥٠ والذي هدف إلى تسوية الخلافات بين الشمال والجنوب بسبب مصير هذه الأراضي كان ذا أهمية بعيدة المدى.

ووصلت جميع تيارات الصراع وانفصام الاتحاد، وتيارات الازدهار والانحطاط، والقوة والضعف إلى ذروتها في سنة ١٨٥٠.

وكان الأبطال الثلاثة الرئيسيون في تمثيلية واشنطن سنة ١٨٥٠ زملاء في الكونغرس منذ سنة ١٨١٣، وكانوا حينذاك شبانًا تختلج نفوسهم بالكبرياء والعاطفة والأمل، والعالم مفتوح أمامهم، والآن وبعد ما يقرب من ٤٠ سنة، وعندما بدأت شمس حياتهم تغيب — لأنهم ماتوا جميعًا خلال سنتين من ذلك التاريخ — وبعد أن ولى الشباب وزال الوهم عادوا جميعًا إلى قلب المسرح.

ولكنهم لم يكونوا وحيدين في الصراع، كما أن شهرة هؤلاء الزملاء الثلاثة التي ملأت الأسماع والأبصار لم تطغ على السناتور توماس هارت بنتون أو السناتور سام هيوستون، فقد كان من هذين الأخيرين أسطورة في حياته، وكانا يحتلان على التوالي مقعد ولاية ميسوري ومقعد ولاية تكساس الاستراتيجيتين، وكان لا بد للاختيار الذي قد يتخذه كل منهما — في وقت كانت فيه البلاد تسير نحو الانقسام — من أن يؤثر في طبيعة الصراع العام ونتائجه.

ويعود السبب في عدم وقوع الانفصال في سنة ١٨٥٠ بدلًا من سنة ١٨٦١ من ناحية إلى دانيال وبستر الذي كان مسئولًا إلى حد كبير عن قبول البلاد بالحلول الوسط التي قدمها هنري كلاي، وسأورد بالتفصيل الأسباب التي دعته إلى تأييد الحلول الوسط وأثر هذا التأييد، والافتراء الذي تعرض له لتشويه سمعته، في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وإلى حد بعيد يعود السبب في عدم انضمام ولاية ميسوري الواقعة على الحدود إلى الاتحاد الكونفدرالي في سنة ١٨٦١ إلى ذكرى توماس هارت بنتون ممثلها السابق في مجلس

الشيوخ، ولم يقدم أي إنسان أكثر مما قدمه السناتور بنتون للمحافظة على الاتحاد، وقد ضَمَّنت جهوده ومصيره الفصل الثالث من هذا الكتاب.

وانضمت ولاية تكساس إلى الاتحاد الكونفدرالي، ولكن بعد صراع حول حياة السناتور هيوستون في شيخوخته إلى حطام، وقد ضمنت سيرته الفصل الرابع.

الفصل الثاني

دانيال وبستر

... ليس كرجل من مساتشوستس ولكن كأميركي ...

لم تكن تلك الليلة العاصفة في ٢١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٠ في واشنطن، ليلة تسمح لرجل مسن مريض بالخروج من منزله، ولكن هنري كلاي الذي كان يمازج تنفسه صفير، وتعتريه نوبات من السعال، شق طريقه عبر العاصفة الثلجية إلى منزل دانيال وبستر، كان في رأسه مشروع لإنقاذ الاتحاد، وكان يدرك أنه لا بد له من الحصول على تأييد أدهى ساسة الشمال، وأبلغهم خطابة، وكان يعرف أن ليس لديه وقت يضيعه؛ ذلك لأن الرئيس تيلور بعث بعد ظهر ذلك اليوم برسالة إلى الكونغرس يطلب فيها قبول كاليفورنيا كولاية حرة، وبالتالي صب وقودًا على ألسنة النار المستعرة التي تهدد بالتهام الاتحاد. وتساءل الشماليون عن السبب الذي أخفق معه الرئيس في أن يذكر نيو مكسيكو في رسالته. وقال الجنوبيون وماذا عن وضع قانون العبيد الهاربين، موضع التنفيذ؟ وماذا عن تجارة الرقيق في منطقة كولومبيا ومناطق حدود يوتاه وتكساس؟ والتهبت المشاعر، وبدأت المؤامرات تتكشف، وعم الشقاق البلاد.

ولكن كان لدى هنري كلاي مشروع، مشروع لتسوية كبيرة جديدة للإبقاء على الأمة. ومضت ساعة وهو يشرح تفصيلاته لدانيال وبستر في منزل هذا الأخير، وقد ساد اجتماعهما جوٌّ من الحرارة والارتياح، وتحدث الاثنان عن كيفية إنقاذ الاتحاد، وقليلة هي الاجتماعات في تاريخ أميركا التي أثمرت على نحو ما أثمر هذا الاجتماع، والتي كانت نتائجها شديدة السخرية؛ ذلك لأن تسوية سنة ١٨٥٠ أضافت إكليل غار جديد إلى

هنري كلاي كصانع سلام، أما تأييد دانيال وبستر الذي ضمن النجاح للتسوية، فقد أدى إلى صلبه سياسيًّا، كما أدى إلى تنديد التاريخ به طوال نصف قرن أو أكثر.

كان ذلك الرجل الذي زاره هنري كلاي في تلك الليلة المطرة، من أغرب الشخصيات في تاريخ أميركا السياسي. وينظر كثيرون منا إلى دانيال وبستر الآن، كرجل خاض معركة ضد الشيطان من أجل إنقاذ روح جابزستون في قصة ستيفن فينسنت بينيت، ولكنه خاض إبان حياته عدة معارك ضد الشيطان في سبيل إنقاذ روحه، وخسر بعض هذه المعارك. وكتب أحد أصدقائه المقربين يقول: إن وبستر «مزيج من القوة والضعف، ومن التراب والألوهية.» أو كما قال أمرسون، كان «رجلًا عظيمًا قليل الطموح.»

ولا مجال هناك للشك في أنه كان رجلًا عظيمًا، فقد بدا رجلًا عظيمًا، وتحدث كرجل عظيم، وعومل كرجل عظيم، وأصر على أنه رجل عظيم، وكان دانيال وبستر بكل أخطائه ونقائصه الشخصية الأكثر موهبة التي عرفها الكونغرس في تاريخه، ليس من حيث مقدرته على كسب تأييد الناس لقضية ما، فقد كان هنري كلاي أبرع منه في ذلك، وليس من حيث مقدرته على صياغة فلسفة حكومية؛ فقد كان كالهون أقدر منه على ذلك، ولكن من حيث مقدرته على بعث الحياة والسمو في المعنى الكامن للوحدة والاتحاد الذي شعر به جميع الأميركيين، والذي لم يتمكن من الإعراب عنه غير القليلين.

كان وبستر خطيبًا بطيئًا جدًّا، ولم يكن معدل عدد كلماته يزيد على مئة في الدقيقة، ولكنه كان يجمع بين سحر صوته الموسيقي العذب كالأرغن، وحيوية الخيال والمقدرة على سحق خصومه بسيل من الوقائع، وأسلوب تتجلى فيه الثقة والتروي، وبمظهر خلاب كان يجعل من خطاباته مغناطيسًا يجتذب الجماهير مسرعة إلى قاعة مجلس الشيوخ، وكان يعد خطاباته بعناية فائقة، ولكنه قلَّ أن كان يكتبها، ويقال إنه كان يفكر في خطابه جملة جملة ويصحح الجمل في فكره دون استعمال أي قلم، ثم يلقي الخطاب كما فكَّر فيه تمامًا.

ومما لا شك فيه أن ذلك المظهر المدهش كان نصف سر قوته، وكان يُقنع كل من تطلع إلى وجهه بأنه ولد ليحكم الناس، وعلى الرغم من أن طوله كان أقل من ست أقدام فإن بنيته النحيلة إذا قورنت بكتفيه العريضتين كانت تضفي عليه وجودًا مسرحيًّا قويًّا، ولكن رأسه الغريب الشكل هو الذي وجد فيه معاصروه ما يستحق الذكر، ووصف كارليل معالم هذا الرأس بحيث يتذكره الجميع، فقال «بشرة لوحتها السمرة، ووجه شاذ الشكل أشبه بصخرة شامخة، وعينان سوداوان باهتتان تقبعان في قعر هوة تحت حاجبين تشبه كل منهما أتون فحم خامد ينتظر شعلة ليتقد، وفم أشبه بفم كلب كبير

قوي أطبقت شفتاه.» ووصف أحد المعاصرين وبستر بأنه «كذبة حية لأنه لا يمكن لأي رجل على الأرض أن يكون في مظهره عظيمًا مثله.»

ومهما تكن أخطاء دانيال وبستر فإنه ظل أعظم خطباء عصره، وأكبر المحامين الأميركيين، ومن أشهر زعماء الحزب الجمهوري، وكان السناتور الوحيد الذي يستطيع أن يوقف كالهون عند حده، وهكذا عرف هنري كلاي أن عليه أن يستعين بهذه المواهب كلها تأييدًا للحل الوسط الكبير الذي أعده. وقد أثبت الزمن وأثبتت الأحداث أنه كان على صواب.

وحين كان دانيال الشبيه بالآلهة يصغي صامتًا، بذل كلاي المريض محاولته الكبيرة الأخيرة للإبقاء على الاتحاد متماسكًا، وكانت النقط الرئيسية في مشروعه خمسًا، وهي: (١) إدخال كاليفورنيا ولاية حرة لا مكان للرقيق فيها. (٢) تنظيم نيومكسيكو ويوتاه كمنطقتين دون قوانين لصالح الرقيق أو ضده، مناقضًا بذلك شرط ويلموت الذي كان موضع نقاش حاد والذي قصد به تحريم الرقيق في المناطق الجديدة. (٣) التعويض على تكساس عن بعض أراضٍ تضم إلى نيومكسيكو. (٤) إلغاء تجارة الرقيق في مقاطعة كولومبيا. (٥) سن قانون أكثر صرامة وتطبيقًا ضد العبيد الهاربين يضمن إعادتهم إلى أسيادهم لدى اعتقالهم في الولايات الشمالية. وكان لا بد من أن تكون هذه التسوية موضع تنديد من جانب المتطرفين الجنوبيين الذين رأوا فيها محاولة تهدئة وعلى الأخص بالنسبة إلى البندين الأول والرابع، ومن جانب الشماليين الذين يدعون إلى إلغاء الرقيق؛ لأنهم رأوا فيها تنازلات للجنوبيين تشكل ٩٠٪ وإعطاء الشمال ١٠٪ كاسترضاء لا معنى له، وعلى الأخص بالنظر إلى البندين الثاني والخامس، هذا بالإضافة إلى أن قليلين من الشماليين تمكنوا من هضم أية تقوية لقانون العبيد الهاربين، الذي كان أكثر القوانين التي سنها الكونغرس مثار كراهية وعصيان إلى حين قانون منع الخمور. وذهبت ولاية مساتشوستس إلى حد اعتبار تنفيذ أي شرط من شروطه داخل الولاية جريمة يعاقب عليها القانون.

وإذن كيف يأمل هنري كلاي أن يكسب تأييد دانيال وبستر ممثل مساتشوستس لمثل هذا المشروع؟ أوليس وبستر من أعداء الرق ومن مؤيدي الشرط الذي وضعه ويلموت؟ أوليس هو الذي قال في مجلس الشيوخ خلال مناقشة أوريغون: سأعارض انتشار الرقيق، وزيادة تمثيله في جميع الأماكن والأوقات، ومهما تكن الظروف حتى في وجه جميع المغريات وضد كل تحديد مفترض للمصالح الكبرى وضد جميع التكتلات وفي وجه جميع التسويات. وفي الأسبوع ذاته كتب إلى صديق يقول: «إنني أعتبر الرقيق منذ أيام

شبابي شرًّا أخلاقيًّا وسياسيًّا كبيرًا ... ولذلك عليك ألا تخشى من أن أصوت إلى جانب أي حل وسط أو أن أفعل شيئًا لا يتفق والماضي.»

ولكن دانيال وبستر خشي أن تؤدي حرب أهلية «إلى تقوية سلاسل العبيد»، وكان الإبقاء على الاتحاد أعز بكثير على قلبه من معارضته للرق.

وهكذا وفي تلك الليلة المصيرية من شهر كانون الثاني (يناير) وعد دانيال وبستر هنري كلاي بتأييد مشروعه تأييدًا مشروطًا وسجل آراءه في الأزمة المحيطة به، وقد شارك في بادئ الأمر آراء أولئك النقاد والمؤرخين الذين سخروا من إمكانية الانفصال في سنة ١٨٥٠، ولكن بعد أن تحدث إلى الزعماء الجنوبيين لاحظ قائلًا «أعتقد أن حالة البلاد والنتيجة المحتومة لترك المشادات القائمة دون حل سيؤدي إلى حرب أهلية.» وكتب إلى ابنه يقول: «بت على وشك الانهيار نتيجة للإرهاق والقلق، ولست أعرف كيف أجابه الحالة الراهنة أو بأي سلاح يمكنني أن أقضي على حماقات الشماليين والجنوبيين التي تهب الآن متساوية في التطرف ... فمعنوياتي ضعيفة وشجاعتي قليلة.»

وكانت مجموعتان تهددان بالانفصال عن الولايات المتحدة في سنة ١٨٥٠، ففي نيو إنكلاند كان غاريسون يقول علنًا «أنا أنادي بتحرير العبيد؛ ولذلك فإنني إلى جانب حل الاتحاد.» وأعلن اجتماع حاشد عقده أنصار تحرير العبيد الشماليون «أن الدستور ميثاق مع الموت واتفاق مع الجحيم.» وفي الجنوب كتب كالهون إلى صديق له في شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٥٠ يقول: «إن انفصام عرى الاتحاد هو البديل الوحيد المتروك لنا.» وفي آخر خطاب عظيم في مجلس الشيوخ تُلي بالنيابة عنه في الرابع من آذار مارس؛ أي قبل أسابيع قليلة من وفاته، وكان يجلس وقد بلغ به الضعف بحيث لم يعد يقوى على الكلام: «إن الجنوب سيضطر إلى الاختيار بين تحرير العبيد والانفصال.»

وحث مؤتمر تمهيدي عقده الجنوبيون بإيعاز من كالهون على عقد مؤتمر واسع النطاق للجنوب في ناشفيل في شهر حزيران (يونيو) من تلك السنة المشئومة لنشر فكرة حل الاتحاد.

وكان الوقت مؤاتيًا للانفصال، وقليلون هم الذين كانوا على استعداد للحديث في جانب الاتحاد، وحتى ألكسندر ستيفنز ممثل جورجيا، وكان حريصًا على المحافظة على الاتحاد، كتب إلى أصدقائه في الجنوب ممن كانوا يعطفون على آرائه، يقول: «إن الشعور بين الأعضاء الجنوبيين بالنسبة إلى حل الاتحاد ... بات أكثر شمولًا، وبدأ الناس يتحدثون عنه الآن بصورة جدية، وكان هؤلاء الناس لا يسمحون لأنفسهم بمجرد التفكير فيه

قبل ١٢ شهرًا ... والأزمة ليست بعيدة ... وإنني أعتبر الآن انحلال هذه الجمهورية أمرًا محتومًا.»

وخلال الشهر الذي سبق الخطاب الخطير الذي ألقاه وبستر، وافقت ست ولايات جنوبية، كان لها أن أعلنت الانفصال بعد ١٠ سنوات، على أهداف مؤتمر ناشفيل وعينت مندوبيها إليه.

وهكذا كانت الحالة الخطيرة في البلاد في الأشهر الأولى من سنة ١٨٥٠.

ولم تأتِ نهاية شهر شباط (فبراير) حتى قرر السناتور من مساتشوستس الخط الذي سيسير فيه، ورأى دانيال وبستر أن الحل الذي وضعه كلاي قد يحول دون الانفصال والحرب الأهلية، وكتب إلى صديق يقول إنه يعتزم أن «يلقي خطابًا صادقًا يضمنه الحقائق ويدعم الاتحاد بحيث يريح ضميره.» وعندما عكف على إعداد ملاحظاته تلقى تحذيرات كثيرة من الحملات التي قد يثيرها خطابه، وحثه أبناء دائرته الانتخابية وصحف مساتشوستس بعدم التردد في موقفه الثابت من تحرير العبيد، وحثه كثيرون على وجوب استعمال لهجة أشد ضد الجنوب، ولكن وبستر عقد عزمه كما قال لأصدقائه في السادس من آذار (مارس) «على دفع قاربي بنفسي من الشاطئ»، وعلى أن يعمل وفقًا للعقيدة التي تحدى بها مجلس الشيوخ قبل ذلك بعدة سنوات:

«إن ثمة ما يبرر في كثير من الأحيان التقلب في الرأي الناجم عن تغييرات في الظروف، ولكن هناك نوعًا واحدًا من تقلب الرأي لا يُغتفر هو التناقض بين إيمان الفرد وصوته، بين ضميره ومسلكه، ولن يستطيع أحد أن يتهمني بهذا النوع من التقلب.»

وهكذا جاء السابع من آذار (مارس) سنة ١٨٥٠.

أنعش وبستر — الذي أدرك بعد أشهر من الأرق والسهد أن هذا هو آخر جهد كبير تسمح به صحته — قوته بأكسيد الزرنيخ وعقاقير أخرى، ووقف وقته ذلك الصباح على تنقيح الملاحظات التي أعدها لخطابه، وقبل الموعد المحدد لاجتماع مجلس الشيوخ بساعتين غصت قاعات مبنى الكابيتول وشرفاته والغرف الخلفية والممرات بأولئك الذين قضوا عدة أيام في السفر، قادمين من مختلف أنحاء البلاد ليستمعوا إلى دانيال وبستر.

وعندما نهض واقفًا على قدميه خيم الصمت على الجمهور وتسمرت الأنظار على الخطيب، ولم يكن أحد غير ابنه يعرف ما الذي سيقوله.

واستنجد وبستر لآخر مرة بسحر مقدرته الخطابية فتخلى عن معارضته السابقة للرق في الولايات، وتخلى عن مقت أبناء دائرته الانتخابية لقانون العبيد الهاربين، وتخلى عن مكانته في تاريخ أبناء بلده وقلوبهم، وتخلى عن آخر فرصة للهدف الذي كان يسعى

له منذ أكثر من عشرين عامًا — الرئاسة، وفضل دانيال وبستر المغامرة بحياته السياسية وبسمعته على المغامرة بالاتحاد.

واستهل خطابه بقوله: «سيدي الرئيس، لا أود أن أتحدث اليوم كرجل من مساتشوستس أو كرجل من الشمال، ولكن كأميركي وكعضو في مجلس الشيوخ الأميركي ... إنني أتحدث اليوم إلى جانب الاتحاد، فأرجو الاستماع إلى ما سأقول.»

ودافع وبستر طوال ثلاث ساعات وإحدى عشرة دقيقة لم يعد خلالها إلى ملاحظاته غير مرات قليلة عن قضية الاتحاد، وبعد أن سرد ظلامات الجانبين دعا إلى التوفيق والتفاهم باسم حب الوطن، وقال إن الشغل الشاغل لمجلس الشيوخ هو الإبقاء على الولايات المتحدة الأميركية لا تعزيز الرق أو إلغاؤه، وانتقد بمرارة وبحجج منطقية مقنعة وبعد نظر مدهش فكرة «الانفصال المستكين»:

«سيدي، لم يكتب لعينيك أو عينيَّ أن تشهدا تلك المعجزة، معجزة تقطيع أوصال هذه البلاد الواسعة، دون أن ينتابها التشنج، ومَن هو ذلك الأحمق ... الذي يتوقع أن يشهد مثل هذا الأمر؟ ... وبدلًا من أن نتحدث عن احتمال الانفصال ومنافعه، وبدلًا من أن نعيش في كهوف الظلام هذه ... دعونا نتمتع بنسيم الحرية والاتحاد العليل ... ولنجعل جيلنا حلقة من أقوى الحلقات وأكثرها إشراقًا في تلك السلسلة الذهبية التي كُتب لها كما أعتقد جازمًا، أن تشد شعوب جميع الولايات إلى هذا الدستور لعصور كثيرة قادمة.»

وهكذا زال خطر الانفصال الفوري وسفك الدماء، وقد جرَّد خطاب وبستر كما قال السناتور ونثروب «الجنوبَ من السلاح وهدَّأه، وحوَّل مؤتمر ناشفيل إلى حطام.» وقالت مجلة التجارة بعد ذلك بشهور «إن وبستر فعل أكثر من أي رجل آخر في البلاد وعلى حساب شعبيته للقضاء على تيار الانفصال ودحره إلى الوراء، التيار الذي كان يهدد في سنة ١٨٥٠ بهدم دعائم الدستور والاتحاد.»

وبعثت روح المصالحة في خطاب وبستر في نفس الشمال شعورًا حقًّا بأنه قام بكل محاولة لمعاملة الجنوب معاملة عادلة، وبات المدافعون عن الاتحاد أكثر اتحادًا وقوة ضد ما شعروا بأنه انتهاك جنوبي لهذه التسويات بعد عشر سنوات، ورأى الشماليون من الناحية العسكرية أن تأجيل المعركة لعشر سنوات يمكِّن الولايات الشمالية من زيادة شعبيتها وقوتها الانتخابية، ومن زيادة الإنتاج وتوسيع شبكة الخطوط الحديدية.

ولا شك في أن هذا كان موضع فهم لدى كثيرين من أنصار وبستر بمن فيهم رجال الأعمال وأصحاب المهن في مساتشوستس الذين ساعدوا على توزيع مئات الألوف من نسخ خطاب السابع من آذار (مارس) في مختلف أنحاء البلاد.

ولكن الذين كانوا ينادون بتحرير العبيد، لم يفهموا ذلك، شأنهم شأن أعضاء حزب التربة الحرة الذي شُكل في سنة ١٨٥٠ لتوسيع تجارة الرقيق، وندد اجتماع حاشد عُقد في قاعة فونيل بالخطاب ووصفه بأنه «غير جدير بسياسي حكيم ورجل طيب»، وقرر أنه «سواء كان هناك دستور أم لم يكن، أو كان هناك قانون أم لم يكن، فإننا لن نسمح بأن يؤخذ عبد هارب من مساتشوستس.» وفي الوقت الذي اتخذ فيه المجلس التشريعي في مساتشوستس قرارات أخرى تناقض روح خطاب السابع من آذار، وصف أحد الأعضاء وبستر «بابن مساتشوستس الخائن العاق الذي يسيء تمثيلها في مجلس الشيوخ.» وقال ثانٍ: «إن دنيال وبستر سيكون رجلًا محظوظًا إذا أبقى الله بما لديه من رحمة على حياته مدةً كافية ليتوب عن فعلته، ويمحو هذه الوصمة التي لطخت اسمه.»

وأُذل دانيال وبستر إلى الأبد في تاريخنا الأدبي بكلمات جارحة صدرت عن أديب عُرف أبدًا بدماثته ونعومته هو جون غرينليف ويتيير في قصيدته الخالدة «إيشابود»:

هكذا سقط وهكذا ضاع، وزالت هالة
النور التي كانت تلفه، وتلاشى إلى الأبد المجد
الذي كان يجلل شعره الأشيب ...
لم يبقَ من أولئك الذين أحببناهم وكرَّمناهم
غير سطوتهم واقتدارهم.
كبرياء تفكير ملاك ساقط
لا يزال قويًّا في سلاسله ...
إذن قدِّموا واجبات احترام الأيام السالفة
لشهرته الميتة
وسيروا إلى الوراء وأشيحوا بوجوهكم عنه
واستروا العار والخزي.

وبعد ذلك بسنوات قال ويتيير إنه كتب هذا الشعر المرير «في لحظة من أتعس اللحظات في حياتي.» وكانت حملة ويتيير مرة بنوع خاص لدانيال وبستر المتغطرس، ومارد العصور الذي كان يزدري كل شيء، ويترفع عن الأحقاد السياسية، وحاول إلى درجة ما، تجاهل مَن يحملون عليه، وعدم الالتفات إليهم قائلًا إنه كان يتوقع أن يتعرض للتشهير والقذف والمهانة، وعلى الأخص من جانب مَن كانوا ينادون بتحرير العبيد،

والمثقفين الذي سبق لهم أن أبدوا احتقارهم له، كما أُهين جورج واشنطن وآخرون سبقوه، وكان يكتفي، بالنسبة إلى الذين كانوا جديرين، بسردٍ سريعٍ لقصة ذلك الشماس الذي قال لأصدقاء له حين وقع في ورطة «إن لي قاعدة أتبعها هي ألا أنظف الطريق قبل أن يتوقف سقوط الثلوج.»

وفي السنة التالية، وعلى الرغم من بلوغه السبعين قام وبستر بجولة خطابية واسعة النطاق، دافع فيها عن موقفه قائلًا «إنه لو كان الاحتمال بنشوب حرب أهلية واحدًا في الألف، لشعرت بأن من الواجب الحذر من ذلك الاحتمال مهما تكن التضحية.» وعندما نجحت جهوده وجهود كلاي ودوغلاس وغيرهم في سبيل التسوية في النهاية قال متهكمًا إن كثيرين من زملائه «يقولون الآن إنهم كانوا يعتزمون أبدًا الوقوف إلى جانب الاتحاد حتى النهاية.»

ولكن حُكم بالخيبة على آمال دانيال وبستر في أن يمكنه هذا التأييد الكامن من السعي لرئاسة الجمهورية؛ لأن خطابه دمَّر هذه الآمال كليًّا بحيث إن عودة شعبيته لم تكن لترضي جماهير الناخبين في نيو إنكلاند والشمال، ولم يفز بالترشيح لمنصب الرئاسة الذي تطلع إليه، ولكنه لم يتمكن كذلك من القضاء على الرأي، الذي لم يعرب عنه نقاده الذين عاصروه فقط وإنما مؤرخون عديدون في القرن التاسع عشر، القائل: إن هدفه الرئيسي من خطاب السابع من آذار (مارس) كان محاولة لكسب تأييد الجنوبيين له في سعيه لمنصب الرئاسة.

ولكن «أنانيته العميقة» التي يؤكد أمرسون أن الخطاب مثلها، لم تكن من دوافعه. «فلو كان يسعى للرئاسة» كما يقول البروفسور نيفنز: «لعمد إلى تشذيب عباراته، ولضمَّن خطابه كلمات مراوغة بالنسبة إلى نيو مكسيكو والعبيد الهاربين، والحيطة الأولى التي يلجأ إليها كل مَن يصبو إلى الرئاسة هي التأكد من ولايته، والدائرة الانتخابية التي ينتمي إليها، وكان وبستر يعرف أن خطابه سيثير صيحات استنكار تتردد أصداؤها بين ماونت مانسفيلد وموناموي لايت.»

وهكذا مات دانيال وبستر، الذي لم يكن ليقصد بخطابه تعزيز شعبيته السياسية، والذي لم يسمح لأطماعه بأن تُضعف من تمسكه بالاتحاد، ميتة رجل يائس ثبطت عزيمته في سنة ١٨٥٢، وقد تركزت عيناه على ذلك العلم الذي كان يخفق على سارية مركب شراعي كان قد ألقى بمرساته في البحر على مرأى من نافذة غرفة نومه، ولكنه كان حتى النهاية حريصًا على متانة خلقه؛ فقد قال وهو على فراش الموت مخاطبًا زوجته

وأولاده وطبيبه «آمل بهذه المناسبة، ألا أكون قد قلت شيئًا غير خليق بدانيال وبستر.» وكان حتى النهاية مخلصًا للاتحاد ولمبدئه العظيم الذي يتميز بالشجاعة، ففي كلماته الأخيرة إلى مجلس الشيوخ خط وبستر شاهدة قبره:

«سأظل أقف إلى جانب الاتحاد ... متجاهلًا كل التجاهل الاعتبارات الشخصية، وما هي الاعتبارات الشخصية ... إذا قيست بالخير أو الشر اللذين قد يصيبان بلدًا عظيمًا في أزمة مثل هذه؟ ... ولتكن العواقب ما تكون، فلست آبه لها، ولا يتألم أي امرئ فوق طاقته ولا يمكن لأي امرئ أن يسقط قبل أوانه، إذا هو تألم أو سقط دفاعًا عن حريات بلاده ودستورها.»

الفصل الثالث

توماس هارت بنتون

إنني أحتقر الشعبية الزهيدة الخادعة ...

دوَّت عبارة «حضرة الرئيس، سيدي ...» في مجلس الشيوخ الذي كاد يكون خاليًا، انطلقت هذه العبارة من شيخ كبير الجثة أسود الشعر في سنة ١٨٥٠، ورأى أولئك الذين ظلوا في القاعة، وكان بينهم شيخ اعترته العصبية كان قد وصف الخطيب بأنه نزَّاع إلى الخصام، عضلات الخطيب تتوتر، وتنتصب كتفاه العريضتان، وسمعوا صوته القاسي الشديد البرودة يطلق كلمة «سيدي» وكأنها سهم مسموم انطلق من ذلك الرأس الأسطوري الضخم:

«حضرة الرئيس سيدي ... إنني لا أخاصم أبدًا يا سيدي، ولكنني أقاتل في بعض الأحيان يا سيدي، وإذا قاتلت يا سيدي فلا بد وأن تَتْبع القتالَ جنازةٌ يا سيدي.»

ولم يعتبر أحد هذا القول مجرد تبجح فارغ من توماس هارت بنتون كبير ممثلي ولاية ميسوري في المجلس، وصحيح أنه لم يقتل أي رجل منذ شبابه في سانت لويس، حين عثر الحظ بنائب عام أميركي ليصطدم بهذا الميسوري العنيف في مبارزة (على مسافة تسع أقدام)، ولكن مجلس الشيوخ بأسره كان يعلم أن توماس هارت بنتون رجل يستطيع القتال في مجلس الشيوخ وخارجه ليس بالمسدس، وإنما بكلمات لاذعة جارحة يضمنها خطاباته خلال المناقشات الحامية، وكان هو نفسه منيعًا لا تؤثر فيه جروح هذه الاشتباكات السياسية التي كان يخرج منها خصومه ودماؤهم تنزف وهم مهيضو الجناح؛ ذلك لأن شخصيته العظيمة وصحته الممتازة جعلته سميك البشرة عقليًّا وجسمانيًّا على السواء (ويعود سمك بشرته من ناحية إلى حف جسمه يوميًّا بفرشاة من

شعر الخيل؛ «لأن المصارعين الرومانيين كانوا يفعلون ذلك يا سيدي»، وعندما كان يُسأل إن كانت الفرشاة حقًّا خشنة، كان يجيب مزمجرًا «سيدي، لو تأتَّى لي أن ألمسك بتلك الفرشاة يا سيدي، لصرخت، إنك تقتلني، يا سيدي»).

وتبنى بنتون قضية الغرب بطاقة لا حصر لها، وهو يعتز بأن خط نقل البريد على الخيول «بوني إكسبرس»، والخط البرقي، والطرق إلى الداخل كانت من منجزاته، وكانت فكرة بناء خط حديدي يعبر القارة وإيجاد غرب نامٍ غني بسكانه وثرواته من الأحلام التي تراوده، وكان يقول: «أيُهزم بنتون أبو مجلس الشيوخ والمدافع عن الشعب؟ لا يستطيع أحد أن يقاوم بنتون يا سيدي.»

ولكن ما إن حلت سنة ١٨٤٤ حتى بدأت تظهر دلائل الهزيمة المحتومة في الأفق؛ إذ أخذت ولاية ميسوري وهي ولاية عبيد، تشعر تدريجيًّا وبقوة، بأنها في ولائها تنتمي إلى الولايات الشقيقة في الجنوب، وراحت تنظر بشك متزايد إلى شيخها المتمرد الذي كان ولاؤه في الأساس موجهًا إلى الاتحاد لا إلى حزبه أو إلى دائرته الانتخابية.

وعندما بدأت حملة الانتخابات في سنة ١٨٤٤ التي كانت ستدرس فيها مسألة إعادة انتخابه، اختلف بنتون مع ولايته وحزبه اختلافًا شديدًا؛ لأنه تسبب بمناوراته في هزيمة معاهدة تقضي بضم ولاية تكساس، ومع ذلك فإن شعبيته بين المواطنين العاديين مكَّنته من العودة إلى الهيئة التشريعية، ولكن بأكثرية ثمانية أصوات، في هيئة تشريعية كان حزبه يتمتع فيهما بأكثرية ٢٧ صوتًا، وقلما كان السناتور بنتون يخطئ فهم هذا الدرس المشئوم غير المكتوب الذي صدر عن الولاية والذي يعني: «خفف من لهجة لسانك الطليق.»

وعلى الرغم من أن بنتون كان على وشك أن يُهزم في انتخابات سنة ١٨٤٤–٤٥ فإنه قاوم حزبه وولايته بجرأة فيما يتعلق بمسألة توسيع حدود أوريغون، فبعد أن أثار شخصيًّا تأييدًا عامًّا لفكرة التوسيع — وعلى الأخص في ميسوري التي أوفدت أعدادًا كبيرة من مواطنيها إلى أوريغون — شعر بأن موقف الحزب الديمقراطي الذي ينادي «بأوريغون كلها أو لا شيء»، وبحد هو «خط العرض ٤٠ و٥٤ أو القتال» موقفٌ غير واقعي بالمرة، وحمل — وهو يتداول مع الرئيس جيمز بولك حول عدم التمسك بهذين الشعارين في التعامل مع بريطانيا وكندا — حمل على زملائه الديمقراطيين في مجلس الشيوخ؛ لرفضهم الاعتراف بعدم صحة وجهات نظرهم — وعلى الأخص على لويس كاس ممثل ميشيغان — وقال وهو يوضح نوعًا من مرض جعل خيول ميسوري تصاب بعمى جسدي وعقلي، ولا يمكن الشفاء منه إلا إذا قطع البيطري عصبًا معينًا: «إنني قطعت عصب الحماقة في كاس، يا سيدي، وشفيته.»

وتعرض بنتون من جديد لحملات وصمته بالجبن والخيانة، ويعتقد كاتب سيرته «أنه ما من رجل في التاريخ سُبَّ وشُتم وأُهين بقدر ما سُبَّ هو في ذلك الوقت.»

وجاءت بداية نهاية بنتون التي بدت نُذُرها في العداوات التي أثارها بسبب تكساس وأريغون في ١٩ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٧، فقد قرأ جون كالهون على مجلس شيوخ قلق مشاريعَ قراراته المعروفة، التي أصرت على أن لا حقَّ للكونغرس في التدخل في تطور الرق في الأقاليم، وأشارت أحداث لاحقة إلى صحة رأي بنتون في أن مشاريع القرارات هذه ليست إلا «جمرات فتنٍ لأغراض انتخابية وأغراض انفصالية» تزود ولايات الرقيق ببرنامج لا تتحد على أساسه كمجرد قطاع فقط، وإنما وراء زعامة كالهون نفسه وترشيحه لمنصب الرئاسة، ومع ذلك فإن كالهون دعا إلى إجراء تصويت فوري، وعلت الدهشة والغضب وجهه عندما رأى بنتون الضخم يقف في مقعده بجلال خلال البلبلة المؤقتة التي سادت المجلس، وقد ظهرت على وجهه علامات الازدراء به وبمشاريع قراراته وبمستقبله السياسي ذاته.

المستر بنتون: حضرة الرئيس، إن أمامنا أعمالًا يجب تصريفها ولست أريد تفادي هذه الأعمال لأنغمس في أمور نظرية.

المستر كالهون: ... كنت أفترض جازمًا أن شيخ ميسوري، وهو ممثل ولاية يُمارس فيها الرقيق، سيؤيد هذه المشاريع ...

المستر بنتون: إن الشيخ يعرف تمامًا، من السبيل الذي انتهجته في حياتي العامة، أنني لن أتخلى عن العمل العام لأتبنى فتنة تحرق العالم.

المستر كالهون: إذن سأعرف أين سأجد السيد.

المستر بنتون: سأكون في المكان المناسب، إلى جانب بلادي والاتحاد.

وكتب بنتون في السنوات التي تلت ذلك يقول: «إن هذا الرد الذي صدر في ذلك اليوم، وفي ذلك المكان هو واحد من الحوادث في حياته التي يريد المستر بنتون من الأحفاد أن يتذكروها.»

وأخيرًا، عندما شقت مشكلة العبيد الحزب الديمقراطي في مؤتمره في سنة ١٨٤٨، استنكر بنتون الانقسام وأنكر على المسألة أهميتها، ورفض أن ينضم إلى أي من المعسكرين، وأصبح رجلًا دون حزب، وسياسيًّا دون قاعدة سياسية معترف بها، وشيخًا دون دائرة انتخابية.

وفي سنة ١٨٤٩ ندد كالهون ببنتون أمام أعدائه في ميسوري ووصفه كرجل «كان زائفًا بالنسبة إلى الجنوب خلال السنوات العشر الأخيرة ... وسيكون ضرره علينا، وهو في صفوف مَن ينادون بتحرير العبيد، أقل منه علينا وهو في معسكرنا، وسيكون مصيره مصير جميع الخونة.» وأعربت الهيئة التشريعية في ميسوري بأكثرية ساحقة عن رغبة ميسوري في التعاون مع الولايات الأخرى التي تمارس الرقيق، وأصدرت تعليماتها إلى ممثليها في مجلس الشيوخ بأن يتصرفوا وفقًا لهذه الرغبة.

ورغب بنتون في أن يقتص من الهيئة التشريعية فقام بجولة هجومية في ولايته المعادية له.

وفي أحد أيام جولته هذه، راح بنتون يتلو أسماء كل عضو من أعضاء الهيئة التشريعية ويعلق عليهم واحدًا واحدًا، وتوقف عند الأسماء التي تبدأ بحرف الدال، وقال إنه يشم رائحة رجل يدعو إلى الانفصال، ووقف عضو في الهيئة يُدعى ديفيس ليعرب عن احتجاجه، فزأر بنتون في وجهه قائلًا «أنا لم أذكر اسمك يا سيدي، فحول جانب وجهك إلى الحضور (وكغبي انصاع ديفيس للطلب) ... أيها المواطنون، ليس هذا منظرًا جانبيًّا لوجه رجل، إنه منظر جانبي لوجه كلب.» وعندما وجَّه صديق قديم سؤالًا إليه دون أن يخلع قبعته وهو لا يزال يلقي خطابه، قال بنتون منتهرًا: «مَن هو هذا الرجل أيها المواطنون، الذي يجرؤ على مقاطعة خطاب بنتون؟» وارتفعت عشرات الأصوات تقول: «أيكوك (ومعناها كما تُلفظ ديك) الكولونيل أيكوك.» ورد بنتون قائلًا: «أيكوك؟ لا أيها المواطنون، لا، لا، إنه ليس ديكًا، وإنما دجاجة، اخلع قبعتك يا سيدي واجلس.»

وعندما اعتلى منصة الخطابة في فاييت، وكان قد هدد بالقتل إن هو تجرأ على دخول حدود المدينة، أثار فريق من الرجال المسلحين ضجة «ولكن لم يمضِ ربع ساعة» كما تقول صحيفة إنكوايرر التي كان يصدرها جفرسون «حتى كان هؤلاء الذين كالوا له الإهانات قد روضوا، واستُقبل خطابه الذي استغرق أربع ساعات بالاحترام والتصفيق.»

ولكن جولة بنتون العاصفة لم تتمكن من وقف تيار كان أكبر من أن يواجهه رجل واحد أو ولاية واحدة، وكتب أحد أصدقاء بنتون يقول:

«إنني آسف لانغماس المستر بنتون في التجديف إلى هذه الدرجة، ولكن خصومه من هذه الناحية ... ليسوا أقل منه تجديفًا، فهناك تسع صحف من مجموع اثنتين وعشرين صحيفة ديمقراطية في الولاية، لا تعرف حدودًا في إطلاق نعوت مهينة عليه بينها خائن، ومرتد، ووغد، ومضرم نيران، ومطالب بإلغاء الرق ... وأخشى أن يهزم بنتون.»

حتى شخصيته الجبارة لم تكن لتخفى عن توماس هارت بنتون حقيقة لا مجال للخطأ فيها، هي أن هذا سيكون آخر عهده بمجلس الشيوخ إلا في حالة واحدة، فهل يدعو إلى مؤتمر يضم جميع الديمقراطيين في ميسوري ليسوي خلافاته مع المعسكر الذي يناصر الرقيق؟ ويقول هو «أفضل قبل أن يحدث ذلك أن أجلس مع الآلاف الستة الذين هلكوا بالكوليرا في سانت لويس على عقد مؤتمر مع شرذمة من المحتالين.» وهل يتلفظ بكلمة واحدة إلى جانب الجنوب خلال مناقشة الحل الوسط الذي وضعه كلاي في سنة ١٨٥٠ أو يسكت على الأقل؛ لينقذ المقعد الذي أحبه من أجل معارك أخرى في المستقبل؟ إنه لن يفعل ذلك، ويقول شخص من ميسوري رافقه أثناء صباه، إن بنتون «... عقد العزم في فترة مبكرة من حياته حين كان يقرأ بلوتارك على أن يضحي بوجوده السياسي إذا اقتضت ذلك مصلحة البلاد.»

وعندما احتدت معركة انتخابات الهيئة التشريعية في ميسوري لتعيين خلف له، تمسك السناتور بنتون بمنصبه في واشنطن، وظل حتى النهاية يندد ببلاغة بالآراء التي اعتنقها أبناء دائرته الانتخابية، وفضل بنتون الهزيمة على أن يتساهل في مبدئه (وكان كما يقول كلاي نزَّاعًا إلى القدْح والذم «جلده أشبه بجلد جاموس البحر سماكة»)، ومن هنا كان أشهر من جميع زملائه من حيث الشجاعة الأدبية، وسار بنتون في طريق مستقل تمامًا في حملاته العنيفة على الحل الوسط الذي وضعه كلاي بعد أن بات في عزلة عن أصدقائه السياسيين في الغرب وفي الجنوب، وظل يمقت أولئك الذين ينادون بتحرير العبيد؛ لأنه اعتبرهم مسئولين كذلك عن شق الاتحاد.

وفي السنة ذاتها وقع حادث محزن ثانٍ وصف بأنه «أكبر إهانة يتعرض لها مجلس الشيوخ في تاريخه» وأظهر مشاعر الجنوب المريرة إزاء بنتون؛ فقد قام السناتور الناري اللاذع هنري فوت ممثل مسيسيبي، ولم يكن منقادًا انقيادًا أعمى لكالهون وإنما كان بنتون يشتبه بأنه ساعد على التخطيط لهزيمته في ميسوري، واعتلى منصة الخطابة في عدة مناسبات ليذم موقف بنتون ويُلحِق به الإهانات بأسلوب خشن تجاوز كل الحدود التي ذهب إليها هذا الأخير بما أُوتي من قوة بيان، وراح فوت يغمز من قناة بنتون ويعيِّره بهزيمته الوشيكة في ميسوري، وفي لدغاته ردًّا على هجمات معاكسة من بنتون قال إن بنتون رجل «يحتمي بسنه ... ويحمي نفسه بجبنه المتأصل فيه.»

وأخيرًا أعلن بنتون أنه إذا كان مجلس الشيوخ لا يستطيع حمايته من هذه «الحملات الكاذبة التي تتميز بالجبن» فإنه يعتزم «حماية نفسه مهما يكن الثمن.» وفي ١٧ نيسان (أبريل) حين كان فوت يشن حملة شفوية عليه، تقدم بنتون نحو ممثل مسيسبي، ثم استدار تحت تأثير لمسة زميل له ضبط معها أعصابه، وفجأة شهر فوت مسدسًا وصوَّبه إلى بنتون، فما كان من هذا إلا أن فتح سترته وقال: «إنني لا أحمل مسدسًا، فليطلق النار، وليطلق القاتل النار.»

ولم يطلق أحد النار، غير أن مجلس الشيوخ أُصيب بالذهول — على الرغم من أن لجنته الخاصة بالإدانة لم توجه غير قليل من التوبيخ للرجلين — ولكن الحملات الشفوية بينهما لم تتوقف، وعندما سمع بنتون بأن فوت هدَّد بوضع كتاب صغير تحتل فيه قضية بنتون دورًا رئيسيًّا، أجاب على ذلك بقوله «أبلغوا فوت أنني سأضع كتابًا كبيرًا جدًّا لن يكون له فيه دور أبدًا» (وقد فعل).

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥١ انتخبت الهيئة التشريعية في ميسوري في ذروة صراع استمر ١٢ يومًا، وفي الاقتراع الأربعين، جمهوريًّا يمثلها في مجلس الشيوخ، وبعد ٣٠ عامًا أمضاها في مجلس الشيوخ الأميركي، أُعفي توماس هارت بنتون من الخدمة بعد أن أُلحق به العار واستُدعي للعودة إلى الولاية.

ولكنه لم ييأس، وظل يرفض بإصرار وعناد السير في الطريق السهلة إلى اعتزال سياسي يتميز بالشعبية والرزانة، فكافح في سبيل العودة إلى الكونغرس السنة التالية ممثلًا عن سانت لويس، وقالت صحيفة كريسنت التي كانت تصدر في نيو أوليانز وتنطق بلسان المعارضة إن حملته الانتخابية «لم تترك سبيل استنكار عام أو شخصي إلا وسلكته واستنفد كل إهانة وشتيمة، ولم يترك عبارة للتهكم أو الازدراء في اللغة الإنكليزية إلا واستخدمها.» وما إن انتُخب في فورة من فورات شعبيته، حتى قذف في الهواء كل فرصة لإعادة انتخابه بأن ألقى بواحد من أعنف خطاباته وهو يعارض الإجراء الرئيسي لحزبه — قانون كانساس — نبراسكا.

ومع أنه هُزم هزيمة منكرة حين سعى لإعادة انتخابه في سنة ١٨٥٤ وتألم كثيرًا لوفاة زوجته الحبيبة، فإنه لم يكن بعد مستعدًّا للاستسلام، وعبثًا حاول العودة إلى مجلس الشيوخ في سنة ١٨٥٥، وفي سنة ١٨٥٦ وكان في الرابعة والسبعين من عمره بذل محاولة أخيرة فاشلة ليفوز بمنصب حاكم، وكشفت جيسي بنتون فريمونت في مذكراتها النقاب عن أن والدها الشجاع الذي كان مصابًا بما يُعرف أنه سرطان قنال في حنجرته،

لم يكن ليستطيع أن يخطب في الناس إلا إذا التزم الصمت طوال أيام قبل ذلك، وحتى في هذه الحالة كان فمه ينزف دمًا خلال خطبه العنيفة وبعدها، ومع ذلك فإنه قام بجولة خطابية قطع خلالها أكثر من ١٢٠٠ ميل في محاولة يائسة لإلحاق الهزيمة بالمرشحين الجمهوريين والمرشحين الديمقراطيين الذين يعادونه، وعاد إلى منزله مهزومًا، ولكن باعتزاز ليكمل كتاباته التاريخية الكبيرة.

ولكن توماس هارت بنتون انتصر حتى في موته وهزيمته؛ ذلك لأن صوته الذي كان ينطلق من الماضي إلى جانب الاتحاد، كان من العوامل الحاسمة التي منعت ميسوري مع ولايات أخرى شقيقة كانت تمارس الرق من الاستسلام لجميع المحاولات اليائسة التي بُذلت لدفعها إلى الانفصال، وقد شهد القدر الحكمة التي تجلت في آخر تقرير قدمه بنتون لناخبيه وهو عضو في مجلس الشيوخ «إنني أقدر الشعبية الحقيقية المتينة النابعة من احترام الناس الطيبين للأعمال الطيبة، وإنني أحتقر الشعبية الزهيدة الخادعة التي تُكسب دون جدارة وتُفقد دون ذنب ... لقد احتللت مقعد مجلس الشيوخ طوال ٣٠ سنة ... واضطُررت في بعض الأحيان إلى مخالفة الآراء التي رسمها أبناء دائرتي الانتخابية وانطباعاتهم الأولى، ولكنني لم أصب أبدًا بخيبة أمل بفضل ثقتي الكلية بذكائهم وتفهمهم لي وبمقدرتهم على إنصافي.»

الفصل الرابع

سام هيوستون

... أستطيع أن أنسى أنني أُسمى خائنًا

كانت خيوط الفجر الأولى تنساب إلى قاعة الشيوخ الخافتة النور في سنة ١٨٥٤ حين وقف خطيب أخير يطلب الكلام، وتراخى أعضاء المجلس الذين استبد بهم التعب والإعياء وطالت لحاهم، تراخوا باكتئاب في مقاعدهم بعد ما عانوه من إرهاق في جلسة استمرت طوال الليل وهم يهمهمون «التصويت التصويت» أملًا بتثبيط عزيمة أي خطيب جديد يريد التحدث عن مشروع باتت الموافقة عليه في حكم المؤكد، ولكن السناتور سام هيوستون ممثل تكساس وبطل سان جاسينتو لم تكن عزيمته لتثبط بسهولة على الرغم من مثل هذه الاحتمالات الساحقة، وعندما انطلق صوته الموسيقي الرنان يحمل إلى زملائه الشيوخ الذين اعترتهم الدهشة، رسالته القوية بكلمات جريئة، وإن تكن غير مصقولة، أخذ الشيوخ ينفضون عنهم السبات الثقيل الذي تسلط على عقولهم المرهقة واستقاموا في مقاعدهم وكلهم عيون وآذان.

وكان مشروع القانون الذي انتهت حوله مناقشة مريرة مضنية هو المعروف بمشروع كانساس-نبراسكا، شعار «الوحدة» الجديد الذي أعده الحزب الديمقراطي وآخر امتياز للجنوب، فقد نقض الحل الوسط المتعلق بولاية ميسوري الذي اعتُمد في سنة ١٨٢٠، وأعاد فتح قضية اتساع الرق التي ساد الظن بأنها انتهت بتسوية سنة ١٨٥٠ بالسماح لسكان تلك الأراضي الشاسعة الممتدة من إيووا إلى جبال روكي بالبت بأنفسهم في مسألة الرقيق، على افتراض أن القسم الشمالي سيكون خاليًا من الرقيق، ويكون القسم الجنوبي

منطقة يُمارس فيها الرق، وكان إقرار المشروع بالنسبة إلى الديمقراطيين والجنوبيين أمرًا «حتميًّا».

وكان سام هيوستون عريقًا في ديمقراطيته، كما كان جنوبي المولد والإقامة والفلسفة والولاء، ولكن سام هيوستون كان أيضًا سام هيوستون، واحدًا من أكثر الذين دخلوا مجلس الشيوخ استقلالًا وشعبية، ومن أقواهم حجة وأكثرهم إثارة، بالإضافة إلى أنه كان فريدًا في نوعه. وكان هيوستون، وهو أول شيخ من تكساس، قد ملأ الأسماع كقائد عام لأولئك المتطوعين المتشردين من تكساس الذين هزموا الجيش المكسيكي في سان جاسينتو وأسروا قائده وبنوا استقلال تكساس، وكعضو في كونغرس تكساس وكرئيس قبل دخول تكساس إلى الاتحاد كولاية، ولم يكن، وهو في الرابعة والستين، هدفًا سهلًا، كما أن ارتباطاته بقطاعه الانتخابي وبحزبه لم تكن لتكمَّ فمه.

كان هيوستون يدرك — ولا شك — أن المشروع سيحظى بالموافقة، وكان يعرف أنه لن يقف إلى جنبه أي ديمقراطي جنوبي، ولكنه انتصب في وقفته وقد دفع ذقنه إلى الأمام، وبدا مهيبًا أو غريب الأطوار في عباءته العسكرية وصدرته المصنوعة من جلد النمر (وكان في بعض الأحيان يظهر وقد لف نفسه ببطانية مكسيكية ووضع على رأسه قبعة عريضة الحوافي)، انتصب هذا «البربري العظيم» واقفًا ليلقي إحدى خطبه النادرة في مجلس كله عيون وآذان، وإن أخذ التعب منه كل مأخذ:

«إن هذا إجراء خطير كل الخطورة، فهل تتوقعون مني أن أظل هنا صامتًا أو أن أتقاعس عن واجبي فأحجم عن تحذير الجنوب من العواقب التي أعتقد أنها ستنجم عنه؟»

سأتكلم على الرغم مما قد أتعرض إليه من تخويف أو تهديد، ورغم النظرات المتجهمة التي ستوجه إليَّ، إنني يا سيدي لا آبه لاتهامي بأنني مِلت إلى المنادين بتحرير العبيد أو المنادين بالتربة الحرة (أي التي لا استرقاق فيها)، وكثيرًا ما يدفعني واجبي إلى الوقوف ضد المنطقة التي أعيش فيها ويعيش فيها رفاقي، وأكن لها محبتي ... سيدي، إذا كان هذا المشروع منة لاسترضاء الجنوب فإنني كرجل من الجنوب أرفض هذه المنة، ولن آخذ منها شيئًا ... فإما أن يعيش أبناؤنا في المستقبل في نعم السلام والانسجام والازدهار، أو في بقايا الفوضى والخلاف والصراع الأهلي، وفي استطاعتنا تفادي هذه الأخيرة ... إنني واثق بأننا نستطيع ذلك ... إنني أستحلفكم احترام العقد الذي وضع في الماضي لإيجاد انسجام في الاتحاد والإبقاء عليه، أبقوا على تسوية ميسوري! ولا تثيروا الفتن وامنحونا سلامًا!

وكان صوته الوحيد ضد مشروع كانساس-نبراسكا في ذلك الفجر العاصف من سنة ١٨٥٤ «القشة الأخيرة التي طفح بها الكيل»، ودارت همسات مسموعة في مجلس الشيوخ مفادها أن هذا سيكون آخر عهد لهذا الجنرال المليء بالحيوية بمجلس الشيوخ.

وقد يبدو التوفيق بين التناقضات في حياة سام هيوستون قبل قرن أمرًا صعبًا اليوم، ولا يزال هيوستون نفسه لغزًا للمؤرخ الدقيق في عصرنا هذا.

فقد كان طموحًا جدًّا، ومع ذلك فإنه ضحى في النهاية بكل ما كان قد فاز به أو كان يصبو إليه، وكان جنوبيًّا، ومع ذلك فإنه تمسك بولائه بقوة للاتحاد، وكان رجلًا يملك عبيدًا ودافع عن حق ممثلي الشمال في مطالبتهم الكونغرس بإلغاء الرق.

وكان سكيرًا رديء السمعة أقسم على الاعتدال، وكان ابنًا بالتبني لهنود من قبيلة شيروكي، ومع ذلك فإنه حقق أول انتصاراته في قتاله ضد القبائل الهندية، وكان حاكمًا لولاية تنيسي، ولكنه كان شيخًا من تكساس، وكان شهمًا كريم الأخلاق، ومع ذلك فإنه كان حقودًا، وكان ودودًا وقاسيًّا، شاذًّا وواعيًا لذاته، مخلصًا وانتهازيًّا في الوقت ذاته، ولكن تناقضات سام هيوستون تؤكد صفة ثابتة أساسية فيه، هي فرديته الجامحة، التي كانت تارة مثيرة وأخرى فظة، وطورًا تبعث على الحيرة، ولكنها كانت أبدًا تتسم بالشجاعة.

وفي انتخابات سنة ١٨٥٧ أعلن هيوستون ترشيح نفسه لمنصب حاكم تكساس، ورفض أن يخوض المعركة كديمقراطي أو كمرشح لأية فئة أو صحيفة، كما رفض الاستقالة من مجلس الشيوخ، وقال إنه سيخوض المعركة كسام هيوستون «ليجدد سياسات الولاية، فالشعب يريد عنصر الإثارة، وسأوفر هذا العنصر كما يوفره أي امرئ آخر.»

وكان أن وفر عناصر إثارة كثيرة، فخطب في الناس في كل زاوية من زوايا تكساس، مستخدمًا معينه الخصب من نعوت التشهير والتهكم القاتلة، وعندما مُنع من حق الخطابة في قاعة المحكمة في إحدى المقاطعات خلال توقفه في جولته الانتخابية، طمأن الناس إلى أن لا بأس في ذلك، وقال:

«إنني لست دافع ضرائب هنا، ولم أتبرع بشراء طوبة واحدة أو مسمار واحد في هذا البناء، ولا حق لي في الخطابة هنا، غير أنه إذا كان هناك بين مَن يسمعني مَن يرغب في الاستماع إلى سام هيوستون وهو يخطب فليتبعني إلى جانب ذلك التل، وإن لي الحق في أن أخطب وأنا أقف على تربة تكساس؛ لأنني سقيتها بدمي.»

غير أن تصويته بالنسبة إلى كانساس وإجراءات جنوبية أخرى كان أمرًا يصعب شرحه لناخبين غاضبين، وكان أن وجهت تكساس لسام هيوستون أول صفعة شديدة في تاريخه السياسي. وقالت صحيفة غازيت المعادية له: إن عليه أن يستقيل من مجلس الشيوخ الآن «بدلًا من أن يتمسك بالمنصب المجدب ... لكي يتلقى فقط علاوته اليومية.» ولكن سام هيوستون الذي لقي ما يشجعه في أن هزيمته لم تتجاوز نسبة ثلاثة إلى اثنين، عاد إلى واشنطن ليمضي آخر سنيه في مجلس الشيوخ دون أن تتزعزع معتقداته. وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٧ طردته الهيئة التشريعية في تكساس بصورة مشينة، واختارت خلفًا له شخصًا أكثر تطرفًا في النطق باسم الجنوب.

ولا نستطيع أن نختتم حديثنا عن شجاعة السناتور سام هيوستون السياسية باعتزاله من مجلس الشيوخ، فبعد أن عاد السناتور السابق الجريء إلى مزرعته في تكساس، لم يستطع الاعتزال عندما وجد أن الحاكم الذي هزمه قبل ذلك بسنتين راح يهدد بالسير بالولاية نحو الانفصال؛ ولذلك فإن هذا المقاتل المسن عاد في خريف سنة ١٨٥٩ فرشح نفسه كمستقل لمنصب الحاكم، وكان هذه المرة أيضًا دون حزب ودون صحيفة ودون هيئة تؤيده، وقد ألقى خطابًا واحدًا في حملته الانتخابية قال فيه بذلك الصوت الساحر يخاطب سامعيه إنه سيعتمد «على الدستور وعلى الاتحاد وعلى كل الديمقراطية الجاكسونية التي تبنيتها أو مارستها رسميًّا ... وأنا في المجال السياسي عدو التجديد؛ لأنني أتمسك بتفانٍ بتلك المبادئ البسيطة التي قامت عليها حكومتنا.»

وكانت الحملة مريرة وشاقة، حمل فيها الديمقراطيون والصحف على هيوستون بعنف وشدة، وعادوا إلى اتهامه كما فعلوا في السابق، بالفجور والجبن، ولكن الغريب أن أثر المسائل التي أثارها (وإن تكن سابقة لأوانها)، ونفوذه بين رفاقه القدماء، والاشمئزاز من إدارة خصومه، والشعبية الجديدة التي اكتسبها قبل تقاعده بقليل بعد أن فضح في قاعة مجلس الشيوخ قاضيًا فدراليًّا كان يقبل رشوة، وفورة الشعب العاطفي نحوه لدى عودته إلى تكساس الحبيبة، كل هذه مجتمعة أدت إلى انتخاب هيوستون حاكمًا، وبذلك انقلب كليًّا التيار الذي أدى إلى هزيمته قبل سنتين.

وعندما التهبت المشاعر إلى حد كبير منادية بالانفصال خلال حملة انتخابات الرئاسة في سنة ١٨٦٠ كان كل ما في استطاعة هيوستون أن يفعله هو أن يناشد أبناء ولايته، الذين نفد صبرهم، الترقب والانتظار لمعرفة كيف يكون موقف المستر لنكولن في حال انتخابه، ولكن حصوله على أصوات قليلة لم يطلبها في المؤتمر الجمهوري كنائب للمستر لنكولن زودت أعداءه بذخيرة جديدة. وعندما التهمت النار بلدة هندرسون بصورة غامضة في

شهر آب (أغسطس) لم يستطع الحاكم أن يفعل شيئًا ليمنع موجة الشنق دون محاكمات قانونية والعقوبات الاعتباطية، ولجان الشرطة الأهلية، ومشاعر السخط والغضب التي التهبت في أعقاب انتشار شائعات عن ثورة زنجية وأعمال حرق. وقوبل خطاب ألقاه هيوستون في واكو وندد فيه بالانفصال بانفجار برميل بارود وراء الفندق الذي كان ينام فيه دون أن يصاب بأذى ولكنه نهض من فراش المرض في شهر أيلول (سبتمبر) غير آبه للأخطار الشخصية والسياسية؛ ليوجه نداءً واحدًا وأخيرًا:

«إنني لا أطلب دحر الإقليمية بإقليمية، وإنما بالوطنية ... وليست لديَّ مشاعر جديدة، فقد أوضحت هذه المشاعر في مجلس الشيوخ الأميركي في سنة ١٨٥٦، وها أنا ذا أعود إلى ترديدها الآن، لقد أُدنت كخائن حينذاك، وها أنا ذا أُدان الآن، وليكن كذلك، فالرجال الذين لم يعانوا ما عانيته من حرمان وعناء وخطر في سبيل بلادي، ينعتونني بالخيانة؛ لأنني مستعد لإطاعة الدستور والسلطات الدستورية، فليعانوا ما عانيت في سبيل هذا الاتحاد، وعندها سيشعرون أنه يلتف بشدة حول قلوبهم بحيث يصبح الخروج عليه أشبه بتقطيع أوصال الحياة ... ومن هم أولئك الناس الذين ينعتونني بالخيانة؟ هل هم أولئك الذين ساروا في ظل العَلم الوطني والمستعدون للدفاع عنه؟ إن ذاك هو عَلمي ... وما دام هذا العَلم يخفق بكبرياء فوقي، حتى كما خفق وسط مشاهد عاصفة لم يكن هؤلاء الناس فيها، فإن في استطاعتي أن أنسى أنني أُسمى خائنًا.»

وانتُخب أبراهام لنكولن رئيسًا، وفورًا رُفع العلم ذو النجمة الواحدة في مختلف أنحاء تكساس في جوٍّ من الحماس وتوقُّع أعمال حربية، ولم يلقَ نداء هيوستون بأن تقاتل تكساس من أجل حقوقها «داخل الاتحاد وفي سبيل الاتحاد» آذانًا صاغية، وظهرت الصحف تنعته «بمشاعر العبودية.»

وكان الحاكم هيوستون موضع تجاهل عندما وجهت دعوة إلى عقد مؤتمر لتقرير الانفصال.

وفي اليوم الذي حُدد لتبني قانون الانفصال، جلس سام هيوستون صامتًا متجهم الوجه على المنصة، وبعث وجوده الشجاعة في القليلين من أنصار الاتحاد الذين ظلوا في القاعة، وقال المؤرخ وارتون «لأولئك الذين يتحدثون عن هجومه الرائع على تل سان جاسينتو، أقول إن دخوله مؤتمر الانفصال في أوستن وتحدي المؤتمرين وفرض الاحترام عليهم تطلب شجاعةً منه تزيد ألف مرة على شجاعته في سان جاسينتو.» ولما تشجَّع جيمزو، ثروكمورتون بسحر وجود هيوستون، وألقى بأحد الأصوات السبعة ضد الانفصال

ارتفع فحيح عالٍ ومرير ضده، وعندها وقف في مقعده وأطلق رده المشهور: «عندما يعلو فحيح الرعاع، على محبي الوطن أن يرتجفوا.»

ولكن، قليلون هم الذين ارتجفوا عندما أُقر قانون الانفصال وعُرض على الشعب للمصادقة عليه بطريقة الاقتراع بعد ذلك بشهر واحد، وللحال قَبِل الشيخ المقاتل السابق التحدي، وقام وحيدًا بحملة للإبقاء على تكساس داخل الاتحاد، وقوبل بجماهير غاضبة، ورُشق بالحجارة ونُعت بالخيانة حيثما توجه في تكساس، وفي واكو تعرضت حياته للخطر، وفي بلتون وقف قاتل محترف فجأة واندفع نحوه، ولكن سام هيوستون العجوز، ركَّز نظراته في عينيه ووضع يديه على مسدسه، وقال: «سيداتي، سادتي ليبق كل منكم في مكانه، فما هو إلا كلب صغير ينبح على أسد في عرينه.» ولم يُصبْ هيوستون بأذى وطاف بالولاية بأسلوب له طابع خاص باعثًا البلبلة في نفوس أعدائه بتهكمه اللاذع، وسُئل رأيه الصريح في زعيم انفصالي، فقال: «إن له ميزات الكلب جميعها باستثناء الأمانة.» وكان هيوستون الآن في السبعين، غير أنه كان لا يزال منتصب القامة ذا عينين نفاذتين وشعر أبيض كث. وقد اختتم جولته في غالفستون أمام جمهور متهكم بشع من الرعاع، وقال «بعضكم يضحك مستخفًّا بفكرة سفك الدماء نتيجة للانفصال، ولكن دعوني أنبئكم بما هو آتٍ: قد تفوزون باستقلال الجنوب كمجرد احتمال بسيط بعد أن تضحوا بملايين لا تُحصى من الكنوز وبمئات الألوف من الأرواح الغالية، هذا إذا لم يكن الله ضدكم، ولكنني أشك في ذلك؛ لأن الشمال مصمم على الإبقاء على هذا الاتحاد.»

ولم يأبه أحد لنبوءته. وفي ٢٣ شباط (فبراير) صوتت تكساس بأكثرية كبيرة إلى جانب الانفصال. وفي الثاني من آذار (مارس)، وهو عيد ميلاد هيوستون وعيد استقلال تكساس، عاد المؤتمر الخاص إلى الانعقاد في أوستن، وأُعلن عن انفصال تكساس عن الاتحاد، وحاول هيوستون يائسًا الأخذ بزمام المبادرة، فأشار إلى أنه سيوضح خططه بالنسبة إلى الموضوع أمام الهيئة التشريعية، وأثار إصراره غضب المؤتمر فصوَّت بأكثرية ١٠٩ أصوات في مقابل صوتين، معلنًا أن تكساس جزء من الاتحاد الكونفدرالي الجنوبي، وقرَّر أن على جميع موظفي الولاية أن يقسموا يمين الولاء الجديدة في ١٤ آذار (مارس)، وردَّ سكرتير الحاكم بقوله إن الحاكم هيوستون «لا يعترف بوجود المؤتمر ولا يعتبر قراره ملزمًا بالنسبة إليه.»

ويصف شاهد عيان يوم ١٤ آذار (مارس) فيقول، إن قاعة المؤتمر كانت «مزدحمة ... ومكهربة بإشعاع ناري انطلق من رجال اضطرمت عواطفهم وتأججت توقعًا لمعركة

انتقامية. وكان الجو في القاعة مشحونًا بسخط وجلبة أصوات كثيرة، بينها أصوات الغاضبين وأصوات المنتصرين والهازئين يقطعها بين آونة وأخرى شتيمة أو نعت يدل على احتقار، ولكن صوت سام هيوستون لم يُسمع.»

وفي الساعة المحددة، أمر كاتب المؤتمر بتلاوة أسماء موظفي الولاية الرسميين لمعرفة المتغيبين منهم، وخيم الصمت على الحضور، وراحت كل عين تجول في القاعة بحثًا عن البطل القديم.

«سام هيوستون»، ولكن لا مجيب.

وعادت أصوات ينبعث منها الاحتقار تجلجل: «سام هيوستون، سام هيوستون»، وأُعلن منصب حاكم تكساس، الاتحاد الكونفدرالي الأميركي شاغرًا رسميًّا. وتقدم إدوارد كلارك نائب الحاكم «وهو مخلوق تافه حقير خفيف الحركة ووقح» ليقسم اليمين (وكان كلارك صديقًا شخصيًّا وسياسيًّا مقربًا من هيوستون، وانتُخب على لائحته الانتخابية، وبعد ذلك دخل المكتب التنفيذي طلبًا لبعض إضرابات الولاية ليجد مَن كان يسدي له النصح في الماضي يستدير إليه في مقعده ببطء؛ ليوجه إليه بعظمة سؤالًا مفعمًا بالاحتقار «وما هو اسمك يا سيدي؟»)

وفي ناحية ثانية من مبنى الكابيتول كان بطل سان جاسينتو، الذي طرح جانبًا حياة سياسية حافلة، وشهرة، وتفانيًا من شعبه، يعكف بقلب كسير على كتابة آخر رسالة له كحاكم:

«أيها المواطنون، باسم حقوقكم وحريتكم التي أعتقد أنها دِيست بالأقدام، أرفض أداء هذا القسم، وباسم ضميري ورجولتي ... أرفض أداء هذا القسم ... «ولكنني» أحب تكساس كثيرًا بحيث لا أستطيع أن أعرِّضها لحرب أهلية ولسفك دماء، ولن أقوم بأية محاولة للاحتفاظ بسلطتي كرئيس للهيئة التنفيذية في هذه الولاية، إلا بما يوجب تصريف مهامي الخاصة. وعندما أعجز عن ذلك فإنني سأنسحب من المسرح بهدوء ... إنني كسير القلب؛ لأنني لن أتخلى عن تلك المبادئ التي قاتلت في سبيلها ... وقد آلمني أشد الألم أن تأتي الضربة باسم ولاية تكساس.»